

تقديم

هذه مسودة مقدمتي لكتاب نادر سراج "العربية المحكية في لبنان". صدر حديثاً عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات (560 صفحة)

أول مرة أجد نفسي في تفكير في الدال والمدلول و الإشكاليات اللغوية الاجتماعية عندما بدأت أترجم نصوص مقابلاتي مع المهندسين في سوريا ومصر في بداية التسعينيات من القرن النصرم من العربية الى الفرنسية. عندها كنت أحضر أطروحة الدكتوراة وكان علي ان أقارن بين خطابي هاتين المجموعتين، حيث لاحظت أن المهندسين المصريين يستخدمون كثيرا "جدا" و "جدا جدا" لوصف مشاعرهم أو مواقفهم من موضوعات كنت قد طرحتها عليهم. فهل كان علي ترجمت ذلك ب "très" أو "très très"؟ وقتها لاحظت أنني لايمكن عمل ذلك وخاصة في معرض المقارنة من زملائهم السوريين.

من هنا يأتي أهمية كتاب عالم اللسانيات التطبيقية نادر سراج "بالعربي المُشْبَرَح: ألفاظ الحياة العامة اللبنانية بين الفصحى والعامية" كلبنة نادرة باللغة العربية حول علاقة اللغة في الواقع المعاش المحلي والمعلم (glocal). لقد أثار انتباهي لأبحاث سراج من خلال كتابه الهام "الشباب ولغة العصر دراسة لسانية اجتماعية" على رهافة حسه في ربط المفردات اللغوية الشبابية بالتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تشهدها المنطقة، وكيف يقوم المزاج الشبابي في تعديل اللغة سيميائياً.

في كتابه الجديد هذا اضطلع سراج بمهمة بحثية مشوّقة عنوانها جمع رصيد ألفاظ الحياة العامة المتداولة في البيئة اللبنانية. كدأبه، باحثاً لسائياً وظيفياً، لم يلجأ إلى أسلوب الانتقاء والاصطفاء، أو سياسة الحذف والإقصاء؛ بل أصاح السَّمْعَ والبصرَ لكل ما يدور حوله، معاينةً ومشاهدةً وكتابةً وترويحاً. فنصيّد ما أقدرته عليه أدائه اللسانية الجوّدة وسمحت به إمكانياته، أي عيّنت من اليومي والمعاش والسائد والمقترض، كي يدرسها ضمن سياقها، ويتقصى دلالاتها – القديمة وتلك المستجدة- ويرفعها بذلك إلى مرتبة "التفكير العلمي". وكانت النتيجة أنه أشرك الآخر – المتلقي- في التعرّف عن كثر على الدينامية التعبيرية لألفاظٍ وعباراتٍ ومجازاتٍ تسري في الخطاب العام، وتتداولها قطاعات الإعلام والفن والسياسة والإعلان وسواها، ولطالما ردها الجمهور بعفوية، أو أعاد إنتاجها بأسلوبه الشعبي، متأكدًا من دقة معانيها وصوابية استخدامها في المقام الكلامي الملائم.

غاص سراج أكثر فأكثر في بحر المفردات التي ينحتها العامة من تفاعلهم مع واقع معلوم لايمكن فهمه بأي دراسة مقتصرة على حدود الدولة الوطنية. رهافته إذا تكمن في قدرته على تجاوز ما يسميه أورليك بيك (Ulrike Beck) بالاختزالية المنهجية القومجية (Methodological nationalism). ونادر سراج مثله مثل محمود البطل وبلال أورفلي (أستاذ اللغة العربية في الجامعة الأميركية في بيروت) يناضلون للموازنة بين جعل اللغة

العربية أقرب الى واقعنا العربي وبين جذورها التاريخية والتي جعلت منها لغة صعبة قواعديا ونحويا وعمقت الهوية بين المكتوب القديم (الفصحى) والمحكي (العامي). وهم بحسبهم العروبي المرهف يريدون الحفاظ على لغة القرآن الكريم وبنفس الوقت تحديث مايمكن تحديثه للموائمة مع الواقع المحلي والمعولم. وإذا كانت اللغة هي واحد من أهم عناصر مفهوم الأمة فهناك حمولات إيدولوجية حنطتها وفصلتها عن صيرورات التغيرات الفكرية و الاجتماعية و السياسية في بلادنا، وكون أن مراكز الإنتاج البحثي هو خارج العالم العربي مما يجعلنا بتفاعل يومي مع أشياء ومفاهيم لم تأسس محليا.

إن رهان الموازنة هو أيضا رهان ناشر هذا الكتاب: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. لقد قام هذا المركز بمشروع جبار هو "معجم الدوحة التاريخي للغة العربية" ، ولكن أيضا نشر بعض الدراسات حول اللغة المحكية والدارجة، مثل ثلاثة كتب لنادر سراج منهم " الخطاب الاحتجاجي: دراسة تحليلية في شعارات الحراك المدني " (2017) و"مصر الثورة وشعارات شبابها دراسة لسانية في عفوية التعبير" (2014). هذا الرهان الذي يمكن التعبير عنه بربط اللغة بالفكر والمجتمع. لم يعد يهم إن كان الشاهد على كلمة ما أو تعبير ما هو شاهد شاب أم كهل، صحيح أو خاطئ، أو مستقيم أو محال أو منحول، أو موضوع. فالكلمة قد رسخت مكانها باستعمال الجمهور لها.

وكتاب " العربية المحكية في لبنان " هو في منزلة بين منزلتين فهو دراسة عميقة بتحويلات اللغة العربية ولكن خو أيضا معجمي. السؤال الذي يمكن أن يطرح: هل يقرأ المعجم؟ نعم يقرأ إذا كان مثل هذا الكتاب الممتع والمفيد لفهم كيق تدل اللغة على تعرجات وتنوعات المعاش في حياتنا اليومية . فتقرأ مفردات تعرف بعضها وتشعر بأنك افتقدت روح الشارع اللبناني والعربي بعدم معرفتك بعضها الآخر. ف"إين نايتات" (mec des boîtes de nuit/night clubs) هو من مرئادي العلب الليلية، و"أبو قرون" كناية عن الشخص النذل، يغض الطرف عن عيوب أهله. وهناك تعبيرات تظهر لنا عمق النزعة الذكورية في خطابنا اليومي ف"أخت الرجال" هي عبارة تميمية المنحى، يكتئ بها قاموسياً عن المرأة ذات العقل الراجح لتشبهها بالرجال في الرأي والمعرفة . فاللغة هي شيفرات تدل على علاقة الأنا بالآخر، مثلما تدل على كيفية فهمنا العالم من حولنا وتعاملنا معه.

وهناك الكثير من المقترضات من اللغات الإنكليزية أو الفرنسية أو التركية منذ الزمن العسلي. فكلمة "استبنة" (أي الدولاب أو العجلة الاحتياطي في السيارة) مقترضة تعود لأصل فرنسي-، وهي تحوير للجملة الفرنسية "c'est un pneu" التي كان يتداولها جنود الانتداب السنغاليون في بيروت في عشرينيات القرن الماضي. واستكلس (من classe) المفردة الفرنسية التي تعني، طبقة اجتماعية وهذا المقترض الفعلي مستخدم للإشارة إلى شخص يدعي الانتماء إلى طبقة راقية . وكلمة أُوْفَر (من Over) هي مأخوذة من الكلمة الإنكليزية ذات الوظائف المتعددة، والتي من معانيها الإفراط . وكلمة "تلتت" تستخدم الصيغة الفعلية المعربة "تلتت" بمعنى:

"تعطّلت" الآلة وتوقفت عن العمل، والفعل معدول عن tilt الإنكليزية. ويريدون بها شخصًا أحبط في مساعيه أو في عمله. وهناك مقولات شعبية التي راجت لفترة في أخلاذ السلف وتم استعمالها في سياقات حدثية مثل "خلصنا..شو هبي بئور!" أو "شو هبي بئور... مابتخّرز!" والوابور هو باخرة عثمانية. والصورتان المجازيتان تستخدمان عمومًا في سياق التعجّب والاندھاش من تعظيم مسألةٍ ما أو أمر مبتذل أو عادي جدًّا، يدخل في باب تحصيل الحاصل ولا يستأهل إبداء الاهتمام.

يتابع سراج في استعراض انزياحات دلالية لكثير من الكلمات. فكلمة "أوكس" القادمة من الحقل تعني في الأوساط الطلابية الشبابية التّمائم والواشي الذي "يفسد" عن الآخرين. و"بيحكي مثل المترليوز" (يتفوّه بكلام سريع وغير مفهوم). وهذا المقترض الفرنسي الملبّن دخل في العام 2010 وهو تحريف للمفردة الفرنسية (mitrailleuse) التي تعني: رشّاش. وهكذا من اكتشافات "سراجية" لطيفة. إذًا، يقدم سراج من خلال هذا الكتاب أدبية ولبنة معرفية جديدة في علم اللسانيات الاجتماعية أو اللغويات الاجتماعية (Sociolinguistics) في الحقل البحثي العربي. ورغم الحدّثة النسبية لهذا العلم (في بداية الستينيات من القرن المنصرم) فإنجازاته جليّة في دراسات مهمة في التأثير المتبادل بين المجتمع واللغة. ويظهر جليًا ذلك في الازدياد المطرد لعدد أعضاء المجموعة البحثية لعلم اللسانيات الاجتماعية في الجمعية الدولية لعلم الاجتماع، ناهيك بتنوع الاهتمامات والموضوعات والمناهج الكمية والكيفية المستخدمة في بحوثه.

ساري حنفي

أستاذ علم الاجتماع في الجامعة الأميركية في بيروت